انطباعات مسافر على هامش المهرجان الوطني الثامن للفيلم في طنجة:

في المغرب تستطيع الاستغناء عن العربية والدار البيضاء مدينة ذات سطوة تفترس الرجال النازحين
أفلام امتحنت ماضي المغرب وادانته فنيا... وبن بركة اختفى وهو في طريقه لمقابلة مخرج فرنسي

سعد القرش*

■ بحساب الزمن، تبدو مدينة طنجة النائمة على حافة شمالي المغرب مطلة على المحيط، أبعد عن القاهرة من نيويورك. فإذا كان موعد الطائرة في الثامنة صباحا، وكنت ممن يسهرون الليل، فستصل إلى مطار محمد الخامس في الدار البيضاء بعد خمس ساعات يختصر فرق التوقيت اثنتين منها، لتجد النهار يعود إلى الوراء، بصورة تخل عمل ساعتك البيولوجية، فتنسى النوم على أمل الذهاب إلى طنجة، لكن رحلة القطار تستغرق ست ساعات، أو تنتظر ست ساعات في المطار، إلى أن يأتي موعد طائرة صغيرة تختصر زمن الرحلة إلى أقل من ساعة.

من بداية الرحلة ستطاردك القاهرة، فالطائرة الصغيرة المتجهة إلى طنجة أشبه بتابوت برزخي، يسع عشرين راكبا، تذكرك بسيارات الأجرة «الميكروباص» التي أصبحت ظاهرة مصرية بامتياز، وكأن اليابانيين اخترعوها لإذلال المصريين بالانحناء صعودا وهبوطا عدة مرات في اليوم الواحد، كما أدى انتشار هذه السيارات كسرطان يسري على الأسفلت، إلى كوارث حصدت أرواحاً أكثر من ضحايا الحروب.

كانت الدعوة التي تلقيتها من المركز السينمائي المغربي أقرب إلى إغراء عبثي، كأن تخايلك فاتنة مناسبة تماماً في توقيت غير مناسب.. يوم زواجك مثلاً، أو في ذروة انسجامك مع زوجتك. هذه أول مرة تتاح لي فرصة زيارة هذا البلد الذي يقع في سحره الزائرون، وقدرت أن ذهابي إلى المهرجان الوطني الثامن للفيلم، الذي عقد بطنجة 2ـ10 كانون الأول (ديسمبر) 2005 خيانة لمهرجان القاهرة «الدولي» الذي تعقد دورته التاسعة والعشرون في الوقت نفسه. وقلت: ليكن.

المهرجان.. الخيال الطليق

منذ اليوم الأول، تسرب الإحساس بذنب الخيانة، لأنني لم أجد في طنجة مجرد أفلام، بل حالة مدهشة من الفرح بالفن، الذي لا يوازيه إلا الفرح بالحياة نفسها، على طريقة المغاربة، ذوي الخيال الطليق بحكم انفتاح البلد على أفق بلا حدود، شمالاً وغرباً.

في هذا المهرجان «المحلي» تجد كل شيء خطط له بصرامة، فمشاركة نحو أربعين فيلماً روائيًا قصيراً ونحو عشرين فيلماً طويلاً فرصة لحوار صناع الفيلم مع النقاد والجمهور، حيث يقسم برنامج المشاهدة إلى ثلاث حفلات تبدأ في الثالثة ظهراً، وتنتهي بعد منتصف الليل، ويعرض في كل منها فيلمان قصيران، ثم فيلم طويل. وقبل كل فيلم ينادى على مخرجه فيصعد إلى المسرح لتحية الجمهور وإلقاء كلمة موجزة عن العمل، وتقديم كل من شارك في الفيلم، ابتداء من المنتج والأبطال حتى الريجيسير الذي يخبر فريق العمل بمواعيد التصوير. لم يتغير البرنامج، كأن يستبدل فيلم بآخر، كما جرت العادة في مصر. وكانت سينما روكسي (حوالي 800 مقعد) تضيق بجمهور لا يفرق في المشاهدة والحفاوة بين فيلم قصير وآخر طويل، وأمام السينما يزدحم الشارع بمن لم يحظوا بمقعد، أو غير القادرين على شراء تذكرة دخول، فيكتفون بالسلام على السينمائيين وتحيتهم عقب كل عرض.

وفي العاشرة من صباح اليوم التالي تبدأ مناقشة أفلام اليوم السابق، وتخصص ساعة لكل حفل، فيحظى كل فيلم بنحو عشرين دقيقة أو نصف ساعة من حوار يتراوح بين المجاملة والانتقاد العنيف، الذي يصل أحياناً لدرجة الاتهام في الوطنية.

تعدت حالة الفرح بالسينما من الإقبال على المشاهدة، إلى اهتمام غير تقليدي من الصحف اليومية التي أفردت للمهرجان صفحاتها، كما كان التلفزيون الرسمي يذيع أخبار المهرجان في صدر أخباره الأولى.

ستفاجأ بأن الاستعمار، الذي غادر المغرب قبل نصف قرن، لا يزال يحتفظ بظلال وآثار لغوية، تحاصرك منذ وصولك المطار، إلى أي مكان.. في التاكسي أو المحال التجارية. كان بعض صناع الأفلام والنقاد يبدأون حديثهم بالعربية الفصحى، ثم تعوزهم الدقة فيتحدثون العامية المحلية غير المفهومة عربياً، فإذا عزت عليهم الألفاظ المعبرة عن المعاني لاذوا بالفرنسية. بعض هؤلاء كان يختصر الخطوات الثلاث فيتحدث بالفرنسية مباشرة، حيث لا يجد المتحدث ولا السامع مشكلة معها.

حين تبدي عجباً لأن الاستعمار الفرنسي لم يمكث هناك إلا أربعين عاماً، لم تمح آثارها خمسون عاماً من جهود التعريب في ظل الاستقلال، ستسمع من المغاربة، وبالعامية المصرية، كلاماً عن شوفينية المصريين الذين لا يرون غيرهم، ولا يبذلون جهداً لمعرفة العامية المغربية، لأن لدى المصريين يقيناً بأن التاريخ يبدأ بمصر، والجغرافيا تنتهي عند حدودها.

ماروك.. أزمة فيلم

في المغرب تستطيع الاستغناء عن العربية، وأن تستبدل بها الفرنسية، فعلى سبيل المثال، احتفل السينمائيون على هامش المهرجان بمرور عشر سنوات على تأسيس جمعية نقاد السينما بالمغرب، ووزعت ورقة للتعريف بتاريخ الجمعية مكتوبة بالفرنسية، كما غلبت الفرنسية على حوارات بعض الأفلام، ومنها (ماروك)، أي المغرب، الذي يعد أول فيلم تكتبه وتخرجه ليلى المراكشي.

بمجرد عرض الفيلم في المهرجان، انقسم الجمهور والسينمائيون والصحافيون على أنفسهم، حيث رآه بعضهم متحاملاً على المغرب، وينظر إلى البلاد نظرة استعلائية استشراقية، من خلال علاقة فتيات وشبان من المسلمين واليهود، وصفهم الناقد المغربي محمد سكري بأنهم أبطال بلا قضية. الفيلم فيه كثير من الكليشيهات والصور الكاريكاتيرية، وأحياناً يتضمن شيئاً من الرعونة.

كما اعترض مخرج فيلم (فوق الدار البيضاء الملائكة لا تحلق) المغربي محمد عسلي، في ندوة شاركت فيها ليلى المراكشي (30 عاما)، على الفيلم لأنه لا يحترم هوية المغرب.

في حين دافع المدير العام للمركز السينمائي المغربي نور الدين الصايل عن الفيلم، وحق مخرجته في أن تختلف عن/ ومع غيرها في معالجة صور التعايش بين الديانات في المغرب، معتبراً إياها أذكى مخرجة مغربية في جيلها.

كشف المهرجان عن ظاهرة اقتحام المغربيات عالم الإخراج السينمائي، بقوة وثقة، حيث يقترب عدد من قدمن أفلامًا، خلال العامين الأخيرين، من مجموع المخرجات في تاريخ السينما المغربية منذ عام 1958، الذي شهد إنتاج أول فيلم روائي طويل في البلاد.

من المؤشرات التي تدعم رهان المغاربة على جيل جديد من المخرجات فوز فيلم (الراقد)، أول عمل تكتبه وتخرجه المغربية ياسمين قصاري (37 عاما) بثلاث جوائز في المهرجان، منها الجائزة الكبرى.

ولأن المهرجان ليس أفلامًا فقط، بل فرصة للتعريف بالسينما المغربية، فقد أصدر المركز السينمائي المغربي على اسطوانة مدمجة (فيلموجرافيا السينما المغربية 1958ـ2005). بقراءتها يتضح استحواذ الرجال على مجال الإخراج لنحو ربع قرن، إلى أن أفسح مجال لنساء يغامرن بالإخراج، في مقدمتهن فريدة بورقية في فيلم (الجمرة) عام 1982، وفريدة بنليزيد في فيلم (باب السماء مفتوح) عام 1987.

بدأت فريدة بنليزيد (57 عاما) مؤلفة للأفلام، منذ كتبت سيناريو فيلم (عرائس من قصب)، الذي أخرجه جيلالي فرحاتي عام 1981، وتعد من أكثر المغربيات غزارة في الإخراج، فلها أكثر من خمسة أفلام، آخرها (خوانيتا بنت طنجة) الذي شاركت به في مسابقة المهرجان الأخير.

وفي الطريق إلى السينما الروائية مخرجات أخريات، بعضهن شاركن في المهرجان بأفلام قصيرة، مثل ليلى التريكي مخرجة فيلم (دم المداد)، وهناك أيضا جنان فاتن محمدي، ورشيدة سعدي، وسلمى بركاش.

بداية متأخرة لكنها مطلوبة، ومن الظلم مقارنتها بالتجربة المصرية، إذ شهدت السينما في مصر، في سنواتها الأولى أفلاماً أنتجتها وأخرجتها وشاركت في التمثيل بها مصريات، ينظر إليهن الآن باعتبارهن رائدات مثل عزيزة أمير (1901ـ1952) في فيلمها الأول (بنت النيل) 1929، وفاطمة رشدي (1908ـ1996) مؤلفة وبطلة ومخرجة فيلم (الزواج) 1932.

ولكن غزارة الإنتاج المغربي تواجه مشكلة أخرى هي تأخر عرض بعض الأفلام جماهيريًا، بسبب نقص عدد قاعات السينما: الآن تزيد قليلاً على مئة صالة، في حين كان العدد يقترب من 300 دار عرض في السنوات الماضية.

وقلما تجد في المغرب فيلمًا مغربيًا خالصًا، من ناحية الإنتاج لا المعالجة، هناك في كثير من الأحيان منتج مشارك، من فرنسا أو إيطاليا أو إسبانيا. هذه المشاركة حذر منها مخرجون مثل محمد عسلي الذي حصد فيلمه (فوق الدار البيضاء الملائكة لا تحلق) عدداً من الجوائز في مهرجانات دولية، كما نال من هذا المهرجان جائزتي العمل الأول وأفضل سيناريو.

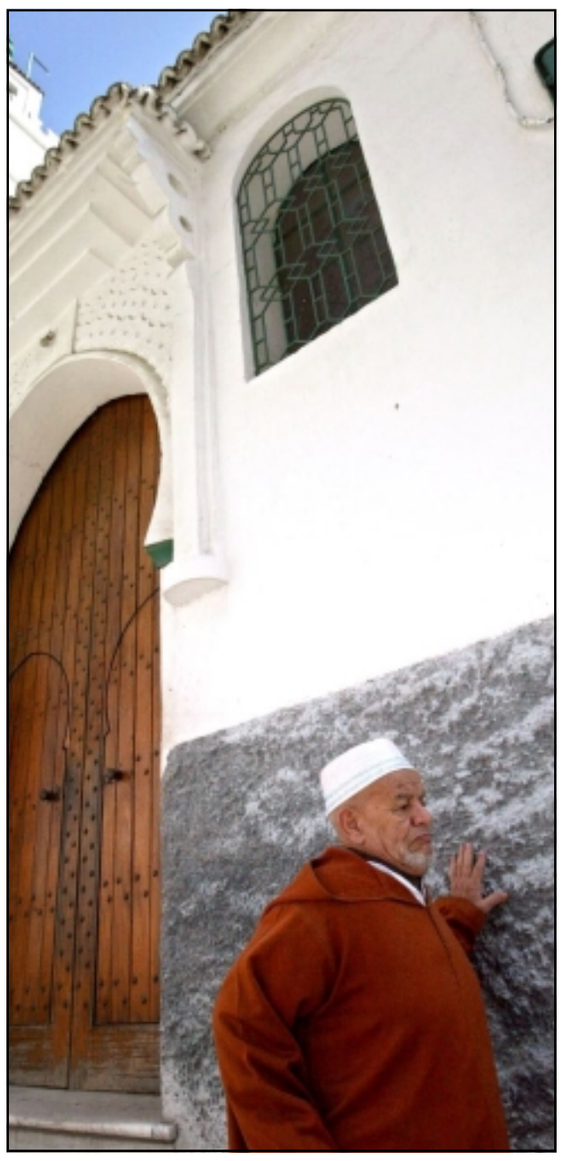

الدار البيضاء.. النداهة

في فيلم عسلي تبدو الدار البيضاء مدينة جاذبة وذات سطوة، لدرجة أنها تفترس الرجال النازحين إليها، بحثًا عن حياة أفضل، غير مبالين بنتائج، منها تيتم أطفال وترمل نساء، لا يزال رجالهن على قيد الحياة.

ينظر الفيلم إلى المدينة باعتبارها المكان الذي يكرهه أبناء القرى، ويرفضونه حتى لو اضطروا للبقاء فيه، ولا يجد المشاهد سببًا مقنعاً لهذه الكراهية المجانية للمدينة التي تصبح هدفًا للعنات، ولهذا يستدعي الأمر جانباً من المقارنة بفيلم مصري هو (النداهة)، المأخوذ عن قصة ليوسف إدريس، وفيه تبدو القاهرة حلماً يتوق إليه أهل الريف ويرفضون مغادرته.

(النداهة) التي كتبها إدريس في الستينيات، وأخرجها حسين كمال للسينما، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، تنتصر لمدينة القاهرة التي بدت مصدراً للعلم والتحقق الشخصي. الفيلم والقصة ينحازان للمدينة، بكل ما تمثله من قيم ومفاهيم، لا تصلح معها قيم القرية وتقاليدها.

ففي محطة القطار العائد إلى القرية، استطاعت الزوجة الهروب من زوج خاف عليها شرور المدينة، ورجعت إلى زحام القاهرة، مفضلة إيقاع الحياة فيها، بصورة لا تستطيع معها التراجع إلى نمط القرية الرتيب.

لكن الدار البيضاء في فيلم عسلي (48 عاما) كانت لعنة على الجميع؛ فهم يكرهونها أو يعيشون غرباء على هامشها وهم مكرهون.

ويدور حول ثلاثة شبان أصدقاء هاجروا إلى الدار البيضاء، بحثاً عن أمان مالي من خلال عمل لا يتاح في قراهم النائية:

إسماعيل يحلم بشراء حذاء غالي الثمن، لكن الحذاء يملكه ويصير عبئاً عليه، فيضطر لخلعه حتى لا يتسخ، ثم يمشي به بعد تغليفه بكيس من البلاستيك.

وعثمان يبحث عن المال، تفادياً لبيع حصانه الذي يصاب بحالة من الهياج ويطيحه على الأسفلت، ويهرب من زحام الشوارع.

أما سعيد الأمازيغي فهو أكثر شخصيات الفيلم اكتمالاً وإقناعًا، فهو يرسل المال لأسرته، كي يتمكن أولاده من تعلم القراءة والكتابة، بدلاً من اطلاع آخرين على الأسرار المتبادلة بينه وبين زوجته، عبر قراءتهم للرسائل.

وتحمل الرسائل المتبادلة بين سعيد وزوجته وجعاً عميقاً، أقرب إلى التراجيديا الإغريقية صوره الفيلم بشاعرية بعيداً عن الميلودراما.

تقول زوجة سعيد في رسائلها: لماذا استمر في إنجاب أطفال بدون أب.. أطفال يتامى.. الدار البيضاء جعلت منا غرباء.. كم تمنيت ألا أراها.. جعلت نساء القرية ثكالى.

تعترض الزوجة من البداية على هجرة سعيد، الذي اعترف لصديقيه بأن البعض يعيش في المدينة، التي تشبه الغول، أدنى من «عيشة الكلاب». لكنه برر لزوجته أنه سيهاجر ليوفر المال، ليتعلم أبناؤه القراءة والكتابة، فلا يقرأ رسائلهم أو يعرف أسرارهم أحد. ويقول وهو ضائق الصدر «قبح الله الفقر».

يتعاطف الفيلم مع وجهة نظر الزوجة، أكثر من الانتصار لرأي الزوج الراغب في تجنيب أولاده الأمية. فالزوجة تصر على أن يبقى سعيد، لأن المدينة ستبتلعه وتجعله يكتفي بإرسال المال وزيارتهم مرة واحدة في السنة. وتكرر: أنا أكره الدار البيضاء أنا خائفة.

وفي الرسالة الأخيرة تخبره بمرضها، فيعود ويقابل في رحلته إلى القرية مهاجراً عائداً من فرنسا، يقول لسعيد إن في فرنسا مغاربة قضوا خمسة عشر عامًا، مقابل عام واحد بين أولادهم: هناك كثير من الرجال أضاعوا عائلاتهم وأولادهم.

رغم مرض الزوجة منذ أنجبت ابنها الأخير، فلا تقبل من سعيد عذراً، وتتوارى بما تبقى لها من صحة، تكفي فقط لإزاحة وجهها عنه. ويقرر سعيد أن يذهب بها إلى الدار البيضاء لعرضها على طبيب. مرة أخرى تكون المدينة مصدراً للداء والدواء.

وتموت الزوجة قبل بلوغ مدينة تكرهها ولا تريد منها شفاء، ويرفض سائق سيارة الأجرة أن يعود بسعيد وزوجته الميتة إلى القرية، أو يكمل الرحلة إلى المدينة، فالقانون يحظر نقل الموتى. ويرجع الزوج بها محمولة على ظهر فرس، عبر جبال الثلوج، لينتهي الفيلم بمشهد أقرب إلى اللوحة الفنية، التي ترشحه ليكون من كلاسيكيات السينما العربية.

غواية مدينة

بقراءة سريعة للفيلموجرافيا، تكتشف كم شكلت الدار البيضاء مصدراً لغواية السينمائيين المغاربة. بعض الأفلام تدور أحداثها في المدينة، رغم تجاهل اسم الفيلم لذلك، في حين اتخذ أكثر من فيلم، من المدينة، عنواناً له. من هذه الأفلام (الدار البيضاء باي لايت) و(الدار البيضاء داي لايت) وكلاهما لمصطفى الدرقاوي، و(فوق الدار البيضاء..) لعسلي، و(حب في الدار البيضاء) لعبد القادر لقطع، و(الدار البيضاء الدار البيضاء) لفريدة بنليزيد.

وفي حين تغيب العاصمة الرباط وكثير من المدن الأخرى عن أسماء الأفلام، نجد فيلمين يشيران إلى مصر هما (زنقة القاهرة)، و(سيدة القاهرة) والأخير أخرجه مومن سميحي، لكنه فيلم مصري خالص ابتداء بكاتبه بشير الديك والممثلين وانتهاء بالمصور والمونتير.

سنوات الرصاص

شهد المهرجان عرض أفلام تحاول مساءلة ماضي المغرب، وإدانته فنيًا، وهي الفترة التي يطلقون عليها الآن «سنوات الرصاص»، في عهد الملك الحسن الثاني، حيث كان يختفي طلاب ومعارضون، يغيبون في السجون سنوات، ثم يعودون، من دون أن يحاكموا، فلا يعرفون لماذا اعتقلوا، أو لماذا أفرج عنهم، وبعضهم لا يزال غائباً إلى الآن. هناك مختفون تورط أكثر من جهاز استخباراتي في قتلهم، ولم تظهر جثثهم إلى الآن، وأشهرهم المهدي بن بركة.

عرض بالمهرجان فيلم (شاهدت اغتيال بن بركة) عن ملابسات

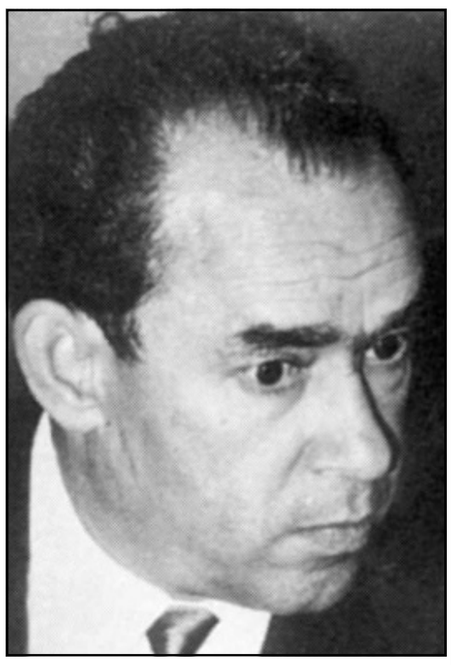

المهدي بن بركة

ما بعد الجريمة، فبعد أشهر من الاختفاء الغامض للزعيم المغربي تكتشف الشرطة الفرنسية، في إحدى البنايات الباريسية عام 1966، جثة جورج فيجون الذي فجر القضية، حيث كان شاهداً على فصولها الأخيرة قبل مصرعه الذي اعتبر حادث انتحار. ويصور الفيلم الذي أخرجه المغربي سعيد السميحي والفرنسي سيرج لوبيرون، كيف كان بن بركة متوجهاً للقاء المخرج السينمائي جورج فرانجو في باريس، للحديث حول مشروع فيلم يتناول مرحلة زوال الاستعمار الفرنسي عن المغرب، بحضور جورج فيجون الذي رتب اللقاء زاعماً أنه مكلف من قبل جهة مغربية، ثم يتضح أن هذه القصة مجرد خدعة. واغتيل فيجون بعد أسبوع من نشره مقالاً في صحيفة إنكليزية بعنوان (لقد شاهدت مقتل بن بركة)، وانتهت التحقيقات آنذاك إلى أن حادث فيجون مجرد انتحار.

بن بركة هو مؤسس الاتحاد الوطني للقوى الشعبية بالمغرب، وله جهود في مجال محاربة الأمية، وربط حملاتها بأهداف التربية الأساسية في البلاد. لكنه تعرض لمضايقات بلغت تهديده بالقتل، بهدف إجباره على ترك وطنه الذي غادره في مطلع الستينيات، ثم اختطف يوم الجمعة 29 تشرين الأول (اكتوبر) 1965، وهو أمام أحد المطاعم الكبرى بباريس، واغتيل في ظروف غامضة لا يزال البحث عنها جاريا بين أجهزة أكثر من دولة.

يقول مثقفون مغاربة إن خصوم بن بركة حاولوا، لعشرات السنين التالية لاغتياله، أن يقصوه عن الذاكرة الجماعية للمغاربة. كما يرى آخرون أن بعض أصدقائه يحاولون الآن، بعد توليهم بعض المناصب، التعمية على قضيته.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 2005، قابل القاضي الفرنسي باتريك رامابيل، المكلف التحقيق في اختفاء بن بركة، نظيره المغربي قاضي التحقيق المكلف بالملف جلال سرحان. ثم رفض رامابيل الإدلاء بأي تعليق مكتفيا بالقول: «ليس الآن». ويقول مثقفون مغاربة إن القضية تتعلق بتورط مسؤولين أمنيين كبار في عهد الحسن الثاني (1961ـ1999).

من أفلام سنوات الرصاص المشاركة في المهرجان (درب مولاي الشريف) لحسن بنجلون، و (جوهرة) لسعد الشرايبي، و(ذاكرة معتقلة) لجيلالي فرحاتي الذي نال جائزة لجنة التحكيم.

ورغم محلية المهرجان، فقد حرص على الاستعانة بسينمائيين من خارج البلاد، حيث رأست لجنة التحكيم مسابقة الفيلم الطويل المنتجة الإسبانية إيزونا باسولا، وضمت اللجنة في عضويتها المنتج الفرنسي جاك لوكلو والمنتج التونسي نجيب عياد ومن المغرب الموسيقي عبد الوهاب الدكالي ومصممة الأزياء زهور الرايس والكاتبين إبراهيم الخطيب ورشيد نيني.

في حين رأست لجنة التحكيم مسابقة الفيلم القصير الممثلة المغربية صوفيا الهادي، وضمت في عضويتها الفرنسيين بوريس سبير وفانسون ميليلي ومن المغرب المخرج العربي بناني وإبراهيم سلاكي.

عشق زي الداء

غادرت القاهرة، على خلفية قضية فساد، اتهم فيها موظف كبير محسوب على وزير الإعلام المصري السابق رئيس مجلس الشورى صفوت الشريف، ورجل أعمال محسوب على ابن الشريف، الرجل القوي في الحزب الحاكم. وجهت إليهما تهم باختلاسات وتبديد الملايين، وعدت لأجدهما في السجن يحاكمان. وقدرت لو أن مصر عادت للمصريين، لكنا في مستوى المغرب. هناك تعد رحلة القطار متعة، هو قطار يصلح لسفر الآدميين، وليس كقطارات مصر التي تتحول، حين تريد الحكومة التخلص من الأعداد الزائدة من البشر، إلى أفران وعلب للحريق، ثم يدعون أن عدد ضحايا حريق قطار الصعيد الذي احترقت منه ثلاث عربات، قبل سنوات، نحو ثلاثمئة، وربما كان هناك صفر ضائع.

شبكة القطارات في المغرب، تغطي ربوع البلاد، من أية مدينة إلى مطار محمد الخامس بالدار البيضاء؛ إذ تصعد من القطار بسلم كهربائي إلى الطائرة. ساعات السفر بالقطار سياحة للعين، لرؤية جمال الخالق الذي يعاقبنا مرتين: الأولى بأن جعل صحراءنا رمالاً صفراء تؤذي العين وتقتل الخيال، والثانية بألا يرحل حكامنا إلا بيد عزرائيل، وحده لا شريك له، حتى نتخلص من أغنياء الحرب والفساد، الذين نمت ثرواتهم، بعيداً عن تطورهم الروحي، فبدا سلوكهم منافيًا للذوق العام، يكفي أن تنظر إليهم، وهم يلقون علب المياه الغازية وبقايا الطعام من سيارات يزيد ثمن الواحدة منها على ربع المليون. في المغرب لا تجد هذا المشهد. الشوارع ومحطات القطار نظيفة، لدرجة تدفعك للاشتياق لما تعودت عليه في مصر، من زحام وفوضى وتلوث وغياب للقانون، كأنها تحولت إلى إدمان، على رأي صلاح جاهين:

باحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء
واكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء.

الشوارع ومحطات القطار نظيفة لدرجة تدفعك للاشتياق لما تعودت عليه في مصر من زحام وفوضى وتلوث وغياب للقانون كأنها تحولت إلى إدمان

* كاتب وروائي مصري